تابع للمحاضرة الثانية: من اللمنهج الجينيالوجي:

06) العدمية وضرورة التأسيس القيمي

إنّ نيتشه من خلال تشييده لمبدأ إرادة القوّة فإنّه كان يصبوا من وراءه إلى تحقيق غايات محدّدة، وهذا ما جعل منها فكرة مركزيّة في فلسفته باتخاذها علّة للوجود حيث يقول: إنّ ماهية الوجود الأكثر حميمية هي إرادة القوة"[1] وبهذا ستغدو المفهوم الوحيد الذي ستوكل له مهمّة تشييد و تأسيس وبناء كلّ ما هو موجود، وبهذا ستكون مصدر القيم باعتبارها خلاّقة، لكن لن يحدث هذا إلاّ بعد حدث العدمية، هذه الحالة التي عند نيتشه حالة مرضية "un état pathologie"[2] وفي المنجد اللغوي العدم هو ضدّ الوجود أي الفقدان، "و العدم لا يتأتى منه إلاّ عدم"[3] و العدمية هي لفظ مشتقّ من اللفظ اللاتين "Ninil" ومعنى لا شيء، وهي ثلاثة أنواع، فلسفية، أخلاقية و سياسية، وأوّل من استعمل هذا المصطلح هو الأديب الرّوسي "تورجينيف" في روايته "الآباء و الأبناء" سنة 1862، و هي تطلق على المذهب و الاجتماعي الذي اعتنقه عدد كبير من الثوريين الروس قبل سقوط الحكومة القيصرية عام 1917. حيث ارتكز هذا المذهب على نقد الأوضاع الاجتماعية والسياسية الفاسدة، والعدمية السياسية هي مرادفة للفوضويّة أو الفوضى وهي أي العدمية في نظرية المعرفة تعني:" لا توجد حقيقة عامّة ثابتة"

« nie toute vérité générale fixée[4]

وهي ليست رأيا بالفيلسوف أو مذهب لشخص معيّن أو ظاهرة تاريخية، بل هي تجربة جديدة بدأت في الظهور حوالي القرن 18م مع المثالية و الرومانسية الألمانية وكذلك مع الروسي توربنبيف السابق الذّكر وهي من منظور نيتشه من أعظم و أكبر الأحداث التي

---

[1]- جيل دولوز ، نيتشه ، المرجع السابق ، ص 36.

[2] Friedrich Nietzsche, la Volonte de puissance.ibib. P15
"un état pathologie"

[3] عبد المنعم حنفي، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، ميدان طلعت حرب ، القاهرة، ط3، 2000، ص 524.

[4] Armand cuvillier, nouveau vocabulaire philosophique , 18 Edition , librairie Armend colin, paris 1956 , p 126.

عاشها الغرب الحديث، وهو يعتبر نفسه بمثابة العدمي الأوّل في أوربا لأنّه عاش حالة العدمية وجرّبها وذاق مرارتها وهي تحتلّ مكانة أساسية في كتاباته وخاصّة "إرادة القوّة" و هي نتيجة حالة الانحطاط والشّكّ الذي بلغته الحضارة الغربية وهي في نظره بمثابة المسار التاريخي لتاريخ الغرب، فهي إحدى ضروريّاته، وهي تعني عنده أنّ: "كلّ القيم الملزمة تفقد سلطانها الآن، فالقيم التي كانت عليا لحد الآن تفقد مفعولها وصحّتها الآن و هنا يظهر لنا الربط الذي يضعه نيتش بين العدمية و القيمة، لأن العدمية تطرح سؤال القيمة، اذ يقول في إرادة القوة :

"سؤال العدمية ما الجدوى؟"

" la question du nihilisme « à quoi bon »[5]"

حيث تصير العدمية ظاهرة مقلقة و مفزعة "لأنّ ما اعتبره الإنسان حتى يومنا أرفع منه... وكلّ ما رفعه فوق مجرّد الحيوانية، و كلّ ما رفعه طوال عشرين قرنا وكأنّه نجمة تشرق فوق مشاهد حياته، كلّ ذلك يكشف فجأة عن معنى غامض خفيّ، ويبرز أرضية مقلقة تبعث الهلع في النّفس"[6] و الملاحظ هو أنّه رغم اتخاذ نيتشه لمبدأ إرادة القوّة كحركة مضادّة للعدمية، وجعله لإرادة القوّة البديل المستقبلي لها، إلاّ أنّه يسلّم بضرورتها التاريخية والسيكولوجية باعتبارها نتيجة منطقية لهيمنة و سيطرة و سيادة المثل و القيم العليا للحضارة الغربية من دين وأخلاق، وعلم وديمقراطية..... ونجد مارتن ها يدغر يذهب أبعد ممّا تصوّره نيتشه العدمية، تصوّر نيتشه عن العدمية فهي ليست فقط المسار التاريخي لتاريخ الغرب أو خطه الأساسي بل هي قانون الغرب ككلّ " قانون الحضارة الغربية و منطقها، بل إرادة النفي الكامنة وراء تلك الحضارة."[7] فهي القانون الذي بفضله تقاس القيم و تقدّر في العالم الغربي، الذي يتكوّن من عدّة لحظات أوّلها لحظة القيم العليا،

وتليها لحظة تبخيسها و تقويمها ثمّ لحظة الوجود الفارغ من المعنى والفاقد لكلّ قيمة وأخيرا مرحلة إحلال القيم الجديدة أي مرحلة التأسيس القيمي.

---

[5] جمال مفرج، نيتشه الفيلسوف الثائر، أفريقيا الشرق بيروت ، لبنان، 2003، ص70.

[6] جمال مفرج، المرجع نفسه، ص نفسها، (70)

[7] محمّد أندلسي، نيتشه و سياسة الفلسفة، المرجع السابق، ص58.

و العدمية هي ثلاث أنواع أو أقسام، الأولى هي العدمية السلبي: و هي تستمدّ وجودها من البودية التي تعني التّعلق بالحياة من أجل قتلها فهي تقوم على الزّهد و تليها العدمية الإيجابية و هي التي يقبل بها الإنسان الإرتكاسي، وهي تقول نعم لكلّ شيء، نعم للحمار... و النّوع الثالث هي العدمية الإثباتية و هي التي يقول بها نيتشه ومن خلالها يتمّ إحلال القيم الجديد مكان القيم القديمة و معناها التأسيس الجديد للقيم و هي تدمّر و تبني، تقول نعم و لا في الوقت نفسه، وهي تقوم على إرادة القوّة "فهي دافعها و محرّكها.

وهكذا ومن خلال هذا التشخيص و الوصف للحالة العديمة التي عاشها الغرب فإنّ نيتشه يدعونا إلى ضرورة إعادة التأسيس القيمي أي إعادة النظر في كلّ القيم، في كلّ ما اعتقد على أنّه الحقيقة، وهذا التقويم يكون وفق إرادة القوّة فبعد النّقد الذي وجّهه نيتشه للقيم التي كانت سائدة ينتقل الآن إلى مرحلة أخرى والتي من خلالها يأتينا بالتقويم الجديد، وهذه المرحلة يمكن أن نسميها بالبناء أو البداية الجديدة حيث فيها سيستخدم نيتشه وسائل غير التي استخدمها في مرحلة الهدم، فهنا هو يستعمل الحدس الكاشف و يلقي بالمنهج الجينالوجي جانبا بعدما كان قد استعمله في المرحلة الأولى، فالحدس الكاشف هو سبيل إدراك المهمّة الجديدة التي تتمثّل حسبه في ولادة حياة جديدة، والشرط الواجب حسبه لهذه الحياة هو تجاوز العدمية و هذا التجاوز عند نيتشه هو نوع من التّحوّل، تحوّل الأسد إلى طفل، فهذا التّحوّل هو نوع جديد في الوعي والاعتقاد، وبفضله سيشعر الإنسان بأنه يعي العالم الأرضي، فالتجاوز لا يعني الانتقال من العدمية إلى الانتصار عليها بل هو نوع من التّحوّل الذي هو بمثابة نوع جديد في الوعي إذ من خلاله "الإنسان لم يعد يذكر أسماء الآلهة أو يطلب شفاعة القديسين و أنّ دور الكلام الذي يوجهه إنسان للإنسان قد جاء"[8] كما يشير هذا التّحوّل إلى قطيعة مع الأنسان الماضي المحمل بأثقاله، وبفضل هذا التّحوّل سيغدو في الإمكان التأسيس لقيم جديدة قيم إرادة القوّة حيث يقول نيتشه في "هكذا تكلّم زرادشت "سأشرح لكم تحوّل العقل في مراحله الثلاث، فأنبئكم كيف استحال العقل جملا وكيف استحال الجمل أسدا، وكيف استحال الأسد أخير ا فصار طفلا"[9]، فمع الطّفل ستتغيّر

---

[8] جمال مفرج، نيتشه الفيلسوف الثائر، المرجع السابق، ص76.

[9] فريديريك نيتشه ، هكذا تكلّم زرادشت، المصدر السابق، (التّحوّل في ثلاث مراحل)

كل القيم ، والقيمة هي الخاصية الموجودة في الشيء و التي تجعله يقوم في أذهاننا مقاما معينا و هكذا فبعدما كان العقل جملا يرمز إل حمل الانتقال و بالتالي حمل القيم البالية سيتحوّل إلى أسد و الأسد يرمز إلى التّحرّر من كلّ القيم البالية، وفي الأخير سيغدوا العقل طفلا والطفل لا يخفي بداخله شيئا كما أنّه لا يخشى المخاطرة فهو لا يحلم بجنة ضائعة فكلّ شيء مباح بالنسبة إليه فهو عندما يكون عند شاطئ البحر يبني ويهدم دون مبالاة فهو فتنان، فما يصوّره زراشت هنا هو سلفا الإنسان الأسمى الذي سوف يبشر به هذا الطفل و بفضل هذا التحول يصير الإنسان ذلك الذي تحوّل من صورة العدمي إلى صورة العارف الحرّ الذي يضع القيم. تبعا لإرادة القوة المسيطرة عليه، أو التي تحكمه، وهكذا فإنّ نيتشه كان قد أعلن حربا على كلّ القيم سواء الدينية أو الاجتماعية أو السياسية أو الثقافية فقد كان دائما يعترض على المسيحية و الإيمان بالله ويدعوا إلى الإلحاد، كما اعترض على مشروع السلام الدّائم لكانط و دعا إلى الحرب لكن الظاهر أنّ نيتشه كان مخطئا كثيرا فيما يدلي به، فاعتراضاته على تبديل قيم السّلم بقيم الحرب لا تتقدّم بنا إلى الأمام بل تعود بنا إلى الخلف.